الأستاذ: قوراري السعيد.

اسم المادة: النص الأدبي القديم(نثر).

الفئة المستهدفة: سنة الأولى جذع مشترك أدب عربي LMD

المحاضرة 10: الرسائل الأدبية في المشرق والأندلس والمغرب.

أهداف الدرس: أن يتعرف الطالب على الرسائل الأدبية في المشرق والأندلس والمغرب.

مراحل الدرس:

تمهيد:

تعريف الرسائل الأدبية.

الرسائل الأدبية في المشرق.

الرسائل الأدبية في الأندلس.

الرسائل الأدبية في المغرب.

ملخص المحاضرة:

الرسائل الأدبية هي إحدى فنون الأدب، برزت في بداية القرن العشرين، وتعتبر قطعة أدبيّة، وتعرّف بأنّها نصّ نثريّ سهل ، تكون موجه إلى شخص مخصوص كما يمكن أن يكون الخطاب فيها بشكل عام، وأنواع الرسائل الأدبيّة هي الوصايا، والرسائل الشخصيّة، والرسائل الرسميّة الإداريّة.

المحاضرة 10: الرسائل الأدبية في المشرق والأندلس والمغرب.

الرسائل الأدبية فن من فنون الأدب ازدهر في أوائل القرن المنصرم ، وكانت الرسالة قطعة أدبية ؛ لأن الأديب يكتبها وهو في حالة صفاء ذهني ، فتنثال عباراته الأنيقة وهو في غاية التجويد والإتقان. وللأسف فإن هذا الفن الجميل فقد بريقه وأوشك على الاندثار بسبب التقدم المذهل في وسائل الاتصال الحديثة من حاسوب وإنترنت وجوال وغيرها.

تعريف للرسالة الأدبية: هي (نص نثري سهل ، يوجه إلى إنسان مخصوص ويمكن أن يكون الخطاب فيها عاما ، فهي صياغة وجدانية حانية مؤنسة ، وفي عتاب رقيق يظهر النجوى أو الشكوى ، ويبوح بما في الوجدان من أحاسيس وأشجان ، وتتوارد الخواطر فيه بلا ترتيب ولا انتظام ، لتغدو الرسالة إن قصرت أو طالت قطعة فنية مؤثرة دافعة إلى استجابة المشاعر لها ، وقبولها ما باحت به).

ويخلط بعض الباحثين بين الرسالة الأدبية والاخوانية فيعتبرها نوعا واحدا ولكن فوزي سعد عيسى يرى أن هناك فرق بين النوعين، فالرسالة الاخوانية تقتصر على لون من التراسل بين الكتاب والأدباء يعالجون فيه موضوعا من الموضوعات التي تتصل بالعلاقات الاجتماعية أو الشخصية، فيتخذون الرسائل أداة لتصوير عواطفهم، أما الرسالة الأدبية فتعالج ما يتصل بالأدب والفكر من موضوعات، ومن أمثلتها رسالة "ابن المدبر" إلى الكتاب رسائل الجاحظ، وتندرج في الرسالة الأدبية كذلك رسائل المناظرات والجدل والرسالة الوصفية وغيرها، ومع ذلك فالرسالة الأدبية أعم وأشمل من الرسالة الاخوانية، بحيث يمكن إطلاقها على الرسائل الاخوانية وغيرها، لأن الأصل في الرسالة أنها أدبية
بينما لا يمكن تسمية الرسالة الأدبية الصرفة بأنها رسالة إخوانية.

تتصل هذه الرسائل بالأخلاق وسلوك الناس والسياسة والحكم والأمثال ، وتدور حول وصف الطبيعة والسيف، والقلم، والرحلات، والشعوبية، وحث الحكام على توجيه الكلمة وحث الشعب على مقاتلة العدو والشكوى، ونقد الحكم وتصوير المجتمع و حياة الأفراد وسلوكاتهم المعيشية. ويعرفها "حنا الفاخوري":«أما الترسل الأدبي فقد انصرف إلى جميع الكتاب واحتوى على الاخوانيات بأصنافها والمناظرات والمناقشات والمقدمات، والقصص الخيالية...».

كما أن الرسائل الأدبية تتميز بأنها مطولة ، يكتبها البلغاء يسجلون فيها خواطرهم ويدونون آراءهم فيما يَعنُّ لهم من شؤون الاجتماع أو الفكر، أو يعملون على تأييد مذهب وتفضيل فريق على فريق ، أو يكتبونها في الترويح عن النفس أو الفكاهة والسخرية ونحو ذلك.

1-الرسائل الأدبية في المشرق:

عرفت المراسلات منذ أول ظهور لها -بعد توسع الفتوحات العربية الإسلامية وتأسيس الدولة- تحت اسم أدب المكاتبات، وقد صنفت من حيث الموضوع إلى ثلاثة أنواع: الرسمية والأهلية أو الإخوانية والعلمية

مع اتساع أركان الدولة العربية الإسلامية صارت المكاتبات فناً مهماً صبغت بفصاحة وبلاغة لسان العرب الذي اشتهروا به، وهم أمة اللغة والشعر ومعجزة القرآن الكريم، وقد جمعت -حسب المناسبات التي

كتبت لها- بين اللين والحزم... والشدة والرحمة... وفيها الكثير من النصح، ولم تخلو قط من الشعر به ننذر ونحذر... وننصر ونستبشر. كمكاتبات الخلفاء المسلمين لأمراء الأقاليم وقادة الجند والأئمة والقضاة وعامة الشعب.

أو كتلك التي كان يكاتب بها الخلفاء ملوك وأباطرة عصرهم، بها يعقدون الاتفاقيات والمعاهدات، ومن خلالها تفرض الإتاوات والشروط.

فكان لا بد من تأسيس دواوين خاصة لهذه المراسلات، وتعيين كتاب مهرة يجمعون ما بين بلاغة اللغة وفصاحة اللسان، وقوة الحجة وشواهد من الشعر والسنة والقرآن.

وقد اشتهر في كل عصر عدد من الكتاب، من أمثال عبد الحميد الكاتب، المتوفى سنة 132هـ، وأبو الفضل بن العميد، المتوفى سنة 360هـ، والقلقشندي، المتوفى سنة 821هـ، وهو صاحب كتاب "صبح الأعشى في صناعة الإنشا"، الذي يقع في بضعة عشر مجلداً، وهو أضخم موسوعة في أدب الإنشاء والمراسلات، الذي يصعب حصر ما اشتمل عليه من معلومات ومعارف تتصل بفن المكاتبات .

2-الرسائل الأدبية في الأندلس:

لقد ظهر فن الترسل على يد كبار كتاب الأدب المشرقي من أمثال:" الصاحب بن عباد" و" القاضي الفاضل"،" ابن المقفع"،" وابن العميد" وغيرهم من الأدباء المشارقة ثم انتقل هذا اللون الأدبي إلى الأندلس، فظهر ثلة من الأدباء الذين كتبوا في هذا اللون مثل : "أبي حفص بن برد الأصغر وأبو الوليد بن زيدون " ،" لسان الدين بن الخطيب"، و" أبو عامر بن شهيد" وغيرهم.

وإذا كان المشرقي قد زخر بالعديد من الرسائل مختلفة الأهداف والمقاصد ، فإن الأديب الأندلسي قد عمل على محاكاة هذه الرسائل والسير نحوها في العديد من الأحيان ،وفي هذا المجال يقول الدكتور مصطفى الشكعة:« ولا تصيب الرسائل الأندلسية تطورا أو تغيرا بل تظل مصرة على السير في ركب قرينتها المشرقية واقتفاء أثرها وإنما تظل أمينة على متابعة نظائرها في الشرق...».

كما نجد "عمر فروخ" يؤيد هذا الطرح إذ يرى أن الناثرين الأندلسيين قلدوا الناثرين المشارقة في الأسلوب (مع التقصير) وفي الأغراض (مع عدد من أوجه البراعة) أما في الأسلوب فقد طغت الصناعة والسجع منها خاصة على معظم أبواب النثر.

مما يتميز به النثر الأندلسي كثرة الرسائل الأدبية فيه ، وكانت تسعف الكتاب في ذلك ملكات أدبية خصبة وهي تلاحظ بوضوح في كثير من رسائلهم الشخصية إذ نرى الكاتب يتحول برسالته في المودة والإخاء أو في العتاب أو في الرثاء من آثار كثرة الحروب عندهم مع نصارى الشمال مثل كتاب الذخيرة لابن بسام.

وتكثر عندهم الرسائل الشخصية التي تتخذ الطبيعة موضوعا لها ، وفي مقدمتهم ابن الخطيب رسائل متعدد في وصف الطبيعة . وكان للأندلسيين ميل واضح إلى الدعابة والفكاهة ، وهما يتضحان في كثير من رسائلهم الشخصية .

أما الرسالة الأدبية هي ذلك اللون من الترسل الذي يؤدي موضوعات كانت من قبلُ وقفًا على الشعر. وأسلوبها لا يخلو من سخرية أو وصف أو عاطفة، كما ينقل إلى النثر أهم أدوات الشعر من خيال وتصوير. هذه الرسائل تحتوي على نظرات في الحياة والأحياء وحكم عن النفس وموقف من المجتمع.
وتُعد رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد، بما فيها من خيط قصصي، من أهم الرسائل الأدبية في الأندلس. وكذلك رسالتا ابن زيدون الرسالة الجدية والرسالة الهزلية، ثم رسالة ابن برد الأصغر البديعة في تفضيل أُهُب الشاة.

هذا اللون من الرسائل جاء متأثرًا برسالة الجاحظ التربيع والتدوير، وكذلك بكتابه البخلاء حيث يضفي على الموضوع اليسير روحًا من الجد والوقار.

رسالة النخلة:

هي رسالة عتاب لصديق سبق أن عاتبه في العام الفارط على كتمانه لرطب نخلة ، وهي تعد بالأندلس إحدى الغرائب وفريدة العجائب ، ويقول إنه سأله من جناها قليلا ، فقال له لو علمت أن لكم به هذا الكلف لأمسكته عليكم ، ولكنه في العام المقبل إن شاء الله يكون غلتكم وعتادا نفيسا لكم وذخرا حبيسا عليكم ، ويمضى ابن برد قائلا له:

"رسمنا تلك العدة في سويداوات قلوبنا ، ووكلنا بها حفظة خواطرنا ، أما أنت فهلت عليها التراب ، وأسلمتها إلى يد البلى ، حتى إذا أخذت النخلة زخرفها وازينت زينتها ، وبلغت غايتها ، وأشبع القمر صبغها، وأحكمت الشمس نضجها، جنيتها على حين نام السمار، وغفلت الجارة والجار، وأبت بها إبابة الأسد بفريسته.. ولما رأينا طلائع الرطب في الأسواق ، والجنى من بواكير النخيل على الأطباق ،هزت جوانحنا ذكرى العدة، وقلقل أحشاءنا حذر الخيبة، فركضنا الدواب إلى حرمتك، وجعلنا نسرع طمعا في لقائك"

ويذكر ابن برد لصاحبة أنهم حين وصلوا إلى محلته لقيهم فتى ظريف ، فسألهم عن مقصدهم ، فقالوا له : إن جارك وصديقنا وعدنا منذ عام أن يسهم لنا في جني نخله لديه ، فجاءوها ليأكلوا منها ويعلموا أن قد صدقهم ويكونوا عليها من الشاهدين . ويقول ابن برد:

"قال الفتى يا الإخواني في الخيبة أنا ساكن في المحلة التي منبت هذه النخلة في ساحتها وقد صرمها (قطعها) منذ خمسة عشر يوما، وقد كنت قبل صرمها أمنحها نظر العاشق إلى المعشوق، فإذا رأت الطير وهي على سعفها ما أواصل إليها من لحظاتي، وأتابع عليها من زفراتي، رمتنى بأفراد من رطبها أحلى من شفاه العذارى، وأنا اليوم أبكي ربعاً خاليا"

ويتجه ابن برد بالحديث إلى صاحبه قائلا: ما هذه الخيانة للعهد ، ويسأله شيئا مما ادخره منها لأعياده واعداً له أن يناصبوا عنه أعداءه برا وبحرا وأن لا يعصوا له أمرا.

ويصف له شيئا من كلام العرب في النخل وبدء نباته والبلح وتلون حالاته وبعض منظومهم فيه لعله يذيب من جموده ويولد عقيم جوده ، ويورد عليه ما أثر من قول الرسول عليه الصلاة والسلام : " نعمت

العمة لكم النخلة" ويقول: " ليس من حقه أن يستبد بخيرها ويمسك معروفها عنهم ، ويختم الرسالة بقوله:" نستغفر الله ونسأله أن يبدلنا من بخلك نوالا ، وبمطلك إعجالا " وهي رسالة طريفة بما فيها من فكاهة ومن قدرة على التصوير ومن سلاسة في التعبير.

ونشير إلى أن هناك نوعاً من الرسائل الأدبية القديمة يدخل في الحقيقة في باب التأليف وليس في باب المراسلات أو التواصل الشخصي. وفي اعتقادنا أن اعتبار تقديم بعض الأدباء لمؤلفاتهم الطويلة بوصفها رسائل مجردُ وسيلة لتبرير كتابتها ونشرها في زمن يمكن ألا يقبل ببساطة مضمون تلك الكتب/الرسائل، مثل (رسالة الزوابع والتوابع) لابن شهيد، و(رسالة الغفران) لأبي العلا المعري، و(رسالة التربيع والتدوير) للجاحظ، ورسائل ابن زيدون الهزلية، أو حتى (الرسالة القشيرية) التي صنفها في التصوف الإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري الشافعي المتوفى سنة 465هـ.

3-الرسائل الأدبية في المغرب:

حفظت لنا كتب الأدب، مجموعة من النصوص النثرية التي تدخل ضمن وجود العلاقات السلطانية بين ملوك الموحدين في البلاد المغربية وملوك المشرق، أو الرسائل الديوانية بين الملوك إلى الولاة في الأمصار أو إلى طائفة معينة من بلادهم، وقد كانت تتمحور في جلها في المبادلات السياسية لأنها ركن ذو أهمية بالغة في كل علاقة تقام بين حاكمين، كما كان للظروف التي أحاطت بميلاد هذه الدولة وما كان بينها من صراع محتدم بين عدوتها الدولة المرابطية يغذيه طموح كل حاكم منها في السيطرة على بلاد المغرب، والجزيرة الخضراء لتوسيع حدود مملكته . كما سجلت الرسائل الديوانية في هذا العصر الأحداث التاريخية التي كانت تقع آنذاك من غزوات الفتح، وحملات عسكرية للجهاد أو القضاء على الفتن الداخلية وما يميز هذه الرسائل هو وحدة الموضوع التي غلبت عليها، لكنها لا تشمل إلا رسائل الفتوح، والغزوات، ورسائل الردود من الملوك، غير أننا لا نجد في بعض الرسائل الوحدة الموضوعية مما يؤثر سلبا على فنيتها ولكن بشكل نسبي فقط، وكانت الرسائل الموحدية الأولى تدور حول الموضوعات الدينية كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتمثلها رسالة المهدي بن تومرت لاصلاح المجتمع الذي بدأ في الانحلال والابتعاد عن الدين وتتضمن رسالته بعض آرائه في أمراء المرابطين، وفقهائهم .

بسم الله الرحمن الرحيم.

إلى جماعة أهل التوحيد وفقهم الله لما يحبه ويرضاه .

سلام الله عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد فإنا نحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو، ونشكره على آلائه ونعمه، ونصلي على محمد نبيه ورسوله.

والذي نوصيكم به تقوى الله، والعمل بطاعته، والاستعانة به، والتوكل عليه.

كتبنا إليكم هذا الكتاب بعدما اتصلت بنا أخباركم، وقياكم في نصرة الحق، واجتهادكم على إحياء السنة، وتآلفكم وتعاونكم على إظهار الحق، واجتماعكم على اخماد الباطل والظلال، وجهاد المجسمين

والمفسدين، فحمدنا الله تعالى على ذلك، وشكرناه إذ منَّ علينا بالإخوان على إظهار الدين، وإحياء السنة، امتثالا لقول الله تعالى: ﴿...وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ...﴾